

## القصور الطينية في توات: مساهمة في المقاومة الشعبية ومحاكاة للبيئة الصحراوية

### The Clay Q'sour in Touat: A Participation in the Popular Resistance and a Simulation of the Desert Environment

ط د. عبد الكريم طهيري<sup>1</sup>، أ. د. بن شرقي حليلي<sup>2</sup>

<sup>1</sup> جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، a.tahiri@univ-chlef.dz

<sup>2</sup> جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، halilib79@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2025/06/30

تاريخ القبول: 2025/06/22

تاريخ الاستلام: 2024/07/08

**الملخص:** للقصور الطينية في توات عمارة خاصة وفريدة من نوعها، تركز على خصائص ومظاهر حضارية لها علاقة بالبيئة والمجتمع والتاريخ والهندسة العمرانية، من خلال هذه الورقة البحثية سنحاول تسليط الضوء على العمارة القصورية الصحراوية عموماً، قصور توات نموذجاً، ونربطها بتأثيراتها وأدوارها المحلية لا سيما في الجانب الاجتماعي والعسكري، والتي بفضلها قاومت قصور توات البيئة والزمن والأعداء، ولعلنا في إطار هذه المقالة نضع صلة بين علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلم البيئة والاستراتيجيات السياسية والعسكرية.

**الكلمات المفتاحية:** القصور؛ القصبات؛ توات؛ المقاومة؛ المحاكاة؛ البيئة؛ الصحراء الجزائرية.

**Abstract:** The clay Q'sour in Touat represent a unique and distinctive architecture, based on characteristics and cultural features related to the environment, society, history, and architecture. Through this research paper, we will try to shed light on the desert palaces architecture, using the Q'sour of Tuat as a model, and connect them to their local impacts and roles, particularly in the social and military aspects. Thanks to these roles, the palaces of Tuat have withstood the environment, time, and enemies. In this article, we aim to establish a connection between sociology, history, geography, ecology, and political and military strategies.

**Keywords:** Q'sour; Castles; Tuat; Resistance; Simulation; Environment; Algerian Desert.

## 1. مقدمة:

تتميز قصور توات بطابع عمراني فريد من نوعه، جعل لها ميزات ومظهر حضاري ذو بصمة خاصة، أثارت اهتمامات الدارسين والباحثين منذ فترات زمنية ضاربة في التاريخ، إلى درجة أن صارت في يومنا هذا صورة تراثية وأثرية تستدعي البحث والنبش في طبيعتها العمرانية وما إلى ذلك من الأدوار التي لعبتها اجتماعياً وثقافياً وروحياً. إنها مع بعض المناطق الأخرى في الجنوب الجزائري، لا تزال كعمارة صحراوية خالدة تتحدى عوامل الاندثار والأخطار، ولا تزال تحافظ على تسمياتها ومظهرها وأدوارها المتعددة.

ومن هذه الأدوار ذلك الطابع العمراني الذي شُيّد خصيصاً للدفاع عن أهل القصر وحمايتهم. ولعل الفرنسيين لما ارتحلوا في الجنوب واستكشفوا أغوار هذه القصور، وقفوا على تلك العمارة القصورية التي جعلت من القصبات قلاعاً وحصوناً، ومخططات هندسية للواحة أعطت انطباعاً عن تلك المجتمعات وتفاعلاتها مع عناصر الحضارة في ثقافتها وزراعتها وصناعتها ودفاعها. ذلك لأن قصور توات لم تنجو عاماً من الاعتداءات والغارات المحلية والخارجية. أخص بالذكر هنا أوضاعها العامة خلال القرن 19م وإلى غاية بداية الغزو الفرنسي، بل وحتى ظروف وطبيعة البيئة الصحراوية القاسية كانت تؤثر على تلك الحياة القصورية التواتية.

في ورقتنا البحثية هذه وجهنا اهتمامنا فيها نحو العمارة الصحراوية في منطقة توات، والدور الاجتماعي والعسكري والإيكولوجي لتلك العمارة. إننا سعينا إلى تسليط الضوء على تلك العمارة الطينية، وخصائصها في البناء والتشييد والهندسة، وعلاقتها بحماية المجتمع التواتي من الأخطار والصراعات التي كادت تهدد وجوده. وعلى هذا الأساس وضعنا عنواناً لمقالتنا موسوماً بـ "القصور الطينية في توات: مساهمة في المقاومة الشعبية ومحاكاة للبيئة الصحراوية"، وكان القصد بعبارة مقاومة ومحاكاة هو مدى تعايش المجتمع القصور مع البيئة ومقاومة المنطقة لظروفها القاسية من جهة، وللأخطار العدوانية التي قد تتعرض لها

بين الفينة والأخرى من جهة أخرى، والمقاومة والمحاكاة التي احتاط بهما سكان قصور توات كانت من خلال تحصين وهندسة قصورهم دفاعياً وتهيتها عمرانياً تماشياً وظروف البيئة. وعلى أساس ما سبق نتساءل في إشكالية موجزة كالاتي: ما هي قصور توات؟ وفيما تجلت تهيتها العمرانية وأدوارها الدفاعية؟ وكيف كان ذلك؟ وللإجابة على هذه التساؤلات اتبعنا في دراستنا هذه المنهج التاريخي التحليلي، والذي ساعدنا على وصف الحالة القصورية الاقليمية وتحليل معطياتها من خلال بعض الحقائق التاريخية والمعينة الشخصية؛ واعتمدنا في خطتنا على العناصر التالية:

- مقدمة.
- التعريف بقصور توات.
- طبيعة العمارة الطينية في توات.
- نماذج من المهام الدفاعية لقصور توات.
- خاتمة.

## 2. التعريف بقصور توات:

القصر هو عبارة عن مجال جغرافي مشترك، يضم مجموعات وقبائل ذات أصل أو قاسم واحد، تجمع بينها مصالح اقتصادية واجتماعية وأمنية، ويشتمل على قصبة واحدة أو أكثر، كما يشتمل على مرافق أخرى ضرورية مثل السوق والرحبة، وتحيط به الواحة التي تضم بساتين النخيل والفقارة والمقبرة والضريح (بابا عبد الله، 2019/2018، صفحة 27)؛ ومما وقفنا عليه بحكم انتمائنا للقصور التواتية، فإنه بخصوص القصبة فهي الأصل في تأسيس القصر وتكون أقدم وأحصن منه، فالقصر هو توسع عمراني يحيط بالقصبة بما في ذلك واحته وتسميته، وأحياناً نجد وجود عدة قصبات في قصر واحد، ذلك لأن القصبة قد تكون لقبيلة أو عائلة واحدة، والقصر قد يجمع عدة عشائر وأجناس مختلفة.

أمّا عن توات كم منطقة فهي تنقسم إلى ثلاثة مناطق رئيسية وهي: توات الأصلية أو توات الوسطى التي تبدأ من أعالي مقاطعة بودة في النقطة التي ينحرف فيها وادي المسعود باتجاه

الغرب فيأخذ اتجاهه الأول من الشمال إلى الجنوب ليصل إلى رقان (حوتية محمد، 2007، صفحة 32). ويناظر تعداد قصور هذه الجهة حوالي 125 قصراً تشكل بعضها مجمعات قصور كبرى على غرار العاصمة أدرار التي شيدتها وعمّرتها الإدارة الفرنسية كمقر لها منذ سنة 1901م، بالإضافة إلى قصور تيجي، وتمنطيط، وزاوية كنتة، وفنوغيل، وركان، وبودة، وتساييت... (فرج محمود فرج، 1977، الصفحات 141-143).

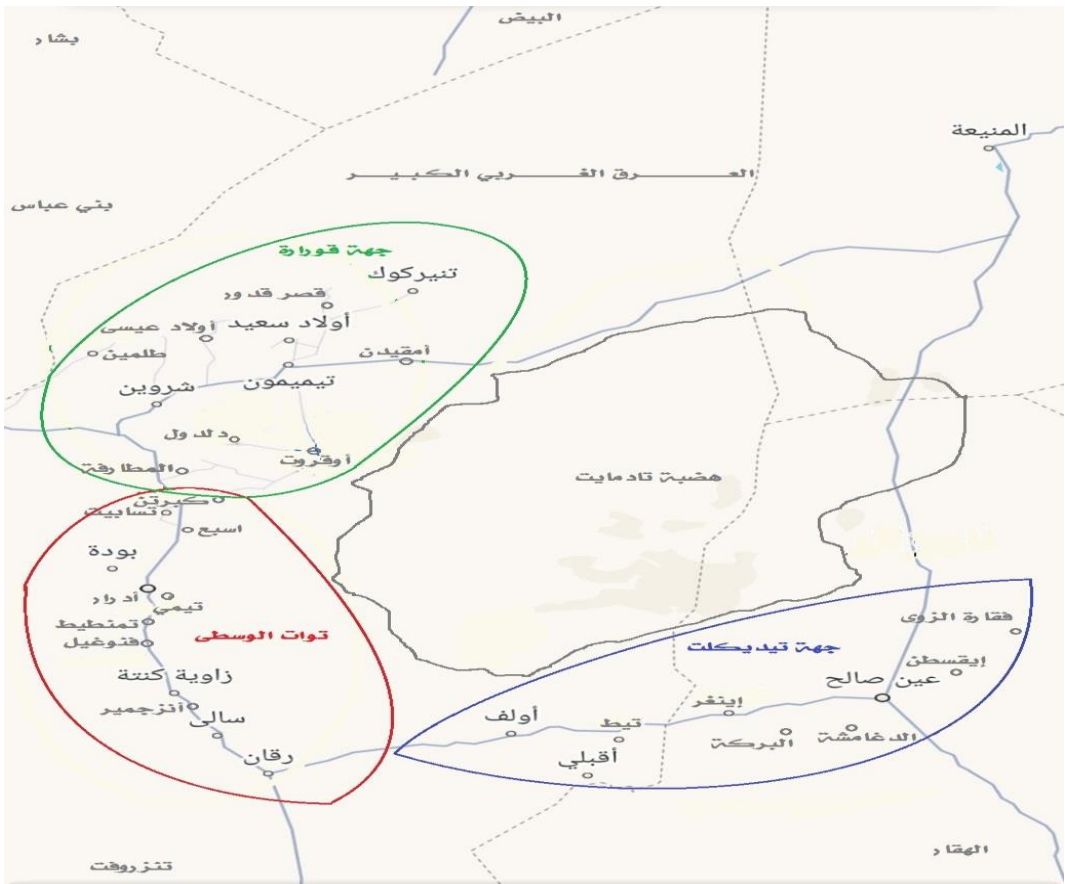
نجد أيضاً منطقة تيديكلت التي تقع في أقصى الشرق والشمال الشرقي من جهة توات الأصلية، حيث تتواجد بين توات الوسطى غرباً ووادي إغرغارن شرقاً، وهضبة تادمايت شمالاً وغرباً ومنطقة الهقار جنوباً، وتمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة 150 كلم، وبها حوالي 45 قصراً أشهرها قصور عين صالح، إينغر، وفقارة الزوى، وأولف، وأقبلي... (مياي ابراهيم، 2012، صفحة 453)، وكانت إلى غاية سنة 2021 جزءاً من ولاية تمنراست، وهي حالياً ولاية باسم عين صالح أو "إن صالح" حسب بعض الروايات للتسمية، في حين بقيت قصور أولف وأقبلي وتيط تابعة لولاية أدرار.

كما نجد منطقة قورارة (تينقورارين سابقاً) التي تقع شمال توات ويحيط بها العرق الغربي الكبير شمالاً، وهضبة تادمايت شرقاً وتوات الوسطى جنوباً (الفاطمي محمد، 2022، صفحة 14، 15) وحوض وادي الساورة ووادي قير غرباً، وعاصمتها حالياً مدينة تيميمون، وهذه المنطقة حوالي 90 قصراً من الواحات الطينية الحمراء، وهي قصور تيميمون، وأولاد سعيد، وأوقروت، ودلدول، والمطارفة، وشروين، وطلمين، وأولاد عيسى، وتينركوك، وقصر قدور (فرج محمود فرج، 1977، الصفحات 139-141). وهي أيضاً كانت تابعة لولاية أدرار إدارياً وصارت منذ 2021 ولاية قائمة بذاتها.

وكخلاصة لما اطلعنا عليه، فإن تسمية توات مختلف علمياً بين من يربطها بأصلها الأمازيغي الذي له علاقة بكلمة (توات أنبو) بمعنى: واحة المياه (A.G.P Martin, 1923, p. 1)، وبين من يربطها بأصلها العربي المشتق من (الأتوات) (البكري محمد بن عبد الكريم، 2024، صفحة 8) وهي الضرائب التي كانت تُدفع لدول الشمال الإفريقي. أما تسمية تيديكلت

فتكاد تجمع المصادر على أنّ معناها "راحة اليد" نظراً لكونها تتواجد في منخفض شرقي بالنسبة لهضبة تادمايت وأما بخصوص قورارة فهي في الأصل "تينقورارين" وتعني في المفهوم الزناتي الأمازيغي "المعسكرات أو المحتشدات"، ذلك لأن البربر الذين كان لهم السبق في استيطان هذه المنطقة أقاموا زرائباً وأكواخاً مجمعة وسكنوها (حاج أحمد الصديق، 2011، صفحة 81).

الخريطة 01: خريطة أهم قصور وجهات منطقة توات الكبرى.



المصدر: من إنجاز الباحث على ضوء مضمون المقالة.

ويشير كثير من الباحثين إلى أن الإقليم التواتي كان فيه حوالي 360 قصراً، ومن بين الإحصائيات التاريخية الأجنبية التي حاولت تدقيق تعداد قصور المنطقة نجد الدراسة والوثائق التي جمعها (لامارتينيير ولاكروا) La Martinière & Lacroix بين سنتي 1894-

1897، حيث ذكر فيها أسماءً ومعلومات عن 337 من القصور والقصبات في المنطقة، منها 121 قصراً أو قصبةً في قوزارة و156 في توات الوسطى و60 في جهة تيديكلت (Lacroix et De lamartinière, 1897, pp. 304-506)؛ أما من خلال المعطيات الراهنة التي استطعنا معاينتها بحكم انتمائنا للإقليم، فإن مجموع القصور حالياً يبلغ حوالي 260 قصر أو يزيدون، لأن بعض القصور اندثرت أو اتحدت.

### 3. طبيعة العمارة الطينية في توات:

بخصوص الطابع العمراني لقصور وقصبات توات، سنجد أن المواد الأساسية في البناء والتشييد هي الطين والحجارة والجير والرمل والمواد المشتقة من النخيل (جذوعها، وجريدها، وكرنافها، وأليافها، وعصي عراجينها...). وعن خصائص العمارة والهندسة القصورية فإنها تميزت بعوامل عدة أثرت فيها، حيث شُيدت على أسس وعناصر لها ارتباطات إيكولوجية واجتماعية حسب الثقافة القصورية التي ساهم فيها الإنسان التواتي، وهذه العناصر نلخصها كالتالي:

#### 1.3 البيئة:

فعلى هذا الأساس فإن معظم القصور تشترك في هندستها خصوصية ترتبط بالواحة. فإما البساتين تكون محيطة بالقصر، أو في أسفل ونهاية القصر، وفي كلتا الحالتين يستفيد القصر من عنصر الماء والاختضار اللذين يساهمان في تلطيف الجو وصد الرياح ووقف زحف الرمال (ينظر للشكل 01 والصورة 03). كما أن الشكل الضيق والمتلاصق للمنازل في القصر يوفر الظل ويكسر أشعة حرارة الشمس، وبرودة الطقس في الشتاء، وكذلك قلة الفتحات والنوافذ الخارجية للبيوت ساعدت على حمايتها من الرياح والأشعة الحارقة. في حين، وجود أفنية ونوافذ داخل المنازل أعطاهم ميزة الحصول على الضوء والشمس دون ضرر. ناهيك عن مواد البناء الطبيعية وحجم وسمك الجدران التي تصل فيها إلى 50 سم، مما يحمي البيت من كل العوامل الخارجية (حوتية عفيفة، 2015/2014، صفحة 16، 17).

شكل 01: نموذج عن محيط القصر، قصر تيلولين بولاية أدرار



المرجع: (محمد عبد الكريم، 2016، صفحة 33)

ومادة الطين التي تكون أساسية في البناء، من خلال الطوب وصقل الجدران بها، كانت من الاختيارات الموفقة لدى البناء والعمراني التواتي، فهي مادة تحتفظ بالحرارة شتاءً وتنشرها ليلاً دافئةً، وتمتص الحرارة صيفاً وتنعكس باردةً في الظل، كما انها مادة متاحة للجميع وغير مكلفة. وبغض النظر عن مقاومتها لظروف الصحراء القاسية، فإنّ لها صورة جمالية موحدة مع خضرة البساتين وصفرة الكثبان الرملية وزرقة السماء، مما زاد من إعجاب الزائرين لها وبفضلها صارت مقصداً جذاباً للسياحة في يومنا هذا، ولعل شهرة مدينة تيميمون باسم الواحة الحمراء قد أخذتها من تلك اللوحة الجمالية للقصور الطينية.

والجميل أن كل مواد العمارة القصورية كانت صديقة للبيئة وتُنتج من الطبيعة، فالطوب الأحمر الذي كان يُصنع محلياً من الطين والرمل والحجارة والماء، كان يخمر ويُعجن ويُصب بقوالب حديدية أو خشبية، وتكون العملية في البستان أو ساحة تحفر فيها حفرة

ضخمة تسمى "العجنة"، حتى أننا كنا نسمع منذ نعومة أظافرنا تراثاً محلياً مصاحباً لهذا العمل، فالفرد الذي لا يأخذ العملية مأخذ الجد يلام على ذلك بمثل شعبي متداول يقول "راك داخل للعجنة بلا سروال". وكان الماء يُجلب من الفقارة (تعليق رقم 01)، ويتم ترك الطوب في الشمس حتى ييبس، وكان الطوب بمختلف الأحجام على حسب الحاجة، وكان بعض الطوب يُصنع باليد فقط دون استخدام القوالب، ثم في بناء البيوت تكون الأساسات من الحجارة، وتُستخدم بكثرة مشتقات النخيل وبعض نباتات البور كالسَبَط.

وأهم ما يلاحظه الباحث في قراءة خريطة توزيع أرخبيل القصور التواتية، أنها تتواجد كلها بمحاذاة هضبة تادمايت (تعليق رقم 02) والأودية الصحراوية، وهنا تكمن عبقرية الإنسان التواتي في استيطانه للمنطقة. فقد اكتشف الباحثون أن قصور توات كانت تأخذ منابع مياهها عبر نظام الفقارات من الخزان الجوفي الضخم الذي يتواجد حول هضبة تادمايت، حيث نجد قصور تيديكلت التي تقع شرق الهضبة تمتد آبار فقاراتها من الغرب إلى الشرق، والعكس بالنسبة لجهة قورارة التي تقع غرب الهضبة حيث تمتد فقاراتها من الشرق نحو الغرب وكذلك قصور توات الوسطى إلى أن تميل جنوباً وشرقاً، وهكذا دواليك تماشياً والحواف المنخفضة لهضبة تادمايت.

والملاحظ أنّ قصور توات كلها تقع منخفضة عن هضبة تادمايت، وأن التواجد البشري في هذه الهضبة منعدماً تماماً، مما يعني أن تعمير المنطقة كان على أساس محاكاة مسار الماء الذي وجدوا أن تدفقه التلقائي يكون من الهضبة إلى حوافها (ينظر للخريطة رقم 01)؛ ناهيك على أن استفادة هذه القصور كذلك من مصبات الأودية المحاذية لها كوادي الساوره والمسعود وأمقيدن كانت متاحة. فتواجد القصور في أحواض هذه المصبات وقّر لها تربة سهلية فيضية تصلح لتكوين واحات زراعية خصبة، وفي نفس الوقت إمكانية وجود مراعي وسبخات في البور لها قيمتها الاقتصادية والتجارية كمسالك ونقاط عبور؛ وللإشارة فهناك دلائل على وجود قديم لنهر أو وادي ضخم من خلال بقايا أصداف وقواقع وعظام

أسماك بل وحتى سلاسل قوارب بحرية، لا زلنا نعثر عليها في منطقتنا (جهة لدول) من حينٍ لآخر.

## 2.3 المجتمع والدين:

من خلال هذين العاملين نلاحظ أن الانسان التواتي بنى قصوره على أساس نمطية مجتمعه والعلاقات فيما بينهم، حيث نجد أحياناً لكل قبيلة قصبة ولكل فئة من تركيبة المجتمع حي، حتى أننا نجد تسميات القصبات والأحياء على ذلك الأساس، مثل قصبة باجودة، وقصبة أولاد حادقة، وقصبة أولاد باجلول في جهة عين صالح، والأحياء مثل زقاق الشرفاء، وزقاق الطلبة، وزقاق الجنة، تنتمي إلى قصر واحد من قصور لدول؛ كما نجد كذلك ضمن هذه الخصوصية تواجد المرافق المشتركة في المكان الوسط والمناسب للجميع، مثل المسجد والرحبة والسوق الذين غالباً ما يوجد في قلب القصر، والمقبرة والبساتين والفقارة التي غالباً ما تحيط بالقصر. كما أن بساطة البناء والتخطيط وتوحيد ذلك النمط، كان سمة من سمات تذليل الفوارق الاجتماعية وصورة عن عدم التمييز والتمايز بين طبقات وفئات المجتمع التواتي.

أما روحياً ودينياً فقد أعطى المصمم القصورى للجانب الديني قيمة واهتماماً في طابعه العمراني، حيث نجد أن المسجد أحسن وأجمل وأنظف من كل شيء في القصر، ونجد من المرافق الهامة تشييد المدرسة القرآنية أو الزاوية، ناهيك على أنه قدس علمائه وشخصياته الصالحة بأضرحة وقباب لها خصوصية عمرانية مختلفة، سواءً من حيث البناء والشكل أو اللون والمكان، ومن هذه النماذج نجد أضرحة لها قبة واحدة، وأخرى لها قبتين، وكلاهما يتم تجييره في كل مناسبة من تلك الزيارات والعادات (ينظر للصورة رقم 04)، وحتى المساجد كان يتم تجييرها داخلياً وفيها أعمدة طينية ضخمة، والجير في غالب الأحيان كان طلاءً عزيزاً ومميزاً كأنه استثناءً وحكراً على المقدسات من العمارة الطينية في تلك القصور.

ناهيك على أن قصور توات والتي يرى بعض مؤرخيها المحليين أنها أخذت تسميتها من كونها كانت تواتي للعبادة، أو تواتي للنفي واللجوء؛ فقد كانت فعلاً منطقة تستقطب

المهاجرين واللاجئين والباحثين عن العزلة والأمان، حتى أنها صارت لصيقة بأولياء الله الصالحين، وهذا الوصف والحال لم يأتي من فراغ وإنما لكونها كانت تقدس العلماء والزوايا، ولا تكاد تجد في كل قصورها اسماً أو زيارةً وعادات إلا وتقوم على ذلك الأساس، ولهذا فقد كان لهؤلاء نصيبهم في العمارة التواتية القصورية، ومن مظاهر أنصبتهم تلك الزوايا والأضرحة والبساتين والفقارات الموقوفة لهم بل وحتى تسميات كثيراً من القصور، ثم ما فتأت حتى المقاومة الشعبية الجزائرية وجدت مكاناً لها في هذه القصور، مثل: لجوء الشريف محمد بن عبد الله وبوشوشة وأولاد سيدي الشيخ على رأسهم سي قدور بن حمزة والشيخ بوعمامة (تعليق رقم 03).

### 3.3 الدفاع:

كما كانت قصور توات قد بُنيت على أساس الجاهزية للدفاع والحماية من المخاطر البشرية الخارجية، حيث نجد في خصوصية هندستها أنها ارتكزت على المخطط التالي: القصبة في الوسط، القصر بمنازله ومسجده وساحاته يحيط بالقصبة، والبساتين والمقبرة تحيطان بالقصر (ينظر للصورتين 02 و03)، وأحياناً نجد في بعض القصور خندقاً من الماء يحيط بالقصبة أو القصر (نسميه في اللهجة المحلية "أزيمن")، أو حتى يكون الخندق فارغاً لكنه غالباً ما يكون عميقاً إلى درجة يعيق فيها ويعرقل تقدم أي عدوان؛ هذا ناهيك على أن القصر أو القصبة تكون محاطة بسور خارجي مرتفع وضخم السماكة، وغالباً ما يكون فوق تلة أو صخرة ضخمة أو جبل كما هو شأن قصور قورارة.

وفي سياق هذه الهندسة القصورية الدفاعية يذكر الرحالة السويسري (أوجين دوماس) في زيارته للصحراء الجزائرية في الفترة الممتدة بين 1843-1851، أنه في معابنته لقصور المحارزة وقورارة رأى أن المنازل فيها تتصل بالبساتين، وبعضها كان يتشكل من طابقين، وأنها كانت محاطة بسور وخندق عمقه 12 قدماً وعرضه 8 أقدام تقريباً؛ وأن تميمون مثلاً كانت تتوسطها قلعة بها باب واحد وأربعة غرف في أبراجها وأركانها، وكل منها كان مخصصاً لحي من أحيائها، حيث تُخزن فيها أموالهم وأشياءهم الثمينة تحت حراسة

مشددة تحسباً لحالات الحرب والهجوم من البرابر؛ لكن نقطة الضعف التي كانت في النموذج القوزاري وكذا كل قصور توات، هي أنها لم تكن لتقاوم الحصار الطويل بحكم أن مأها يأتي من خارج السور (أوجين دوماس، 2024، صفحة 194)، وهو بذلك يقصد ماء الفقارة، ومع ذلك فبعض القصور كانت تحتاط وتحفر بعض الآبار داخل القصبة.

كما أن القصبة بالنسبة للقصر كانت هي القلب النابض والملجأ الأخير الذي يحتوي به السكان المحليين، ولذلك فبنائها كان للحاجة الضرورية التي تحتم عليهم فيها، ومن أدوارها حتى ولو كانت خالية ومهجورة أنهم قد يطمرونها ويخبئون فيها مخزونهم من الغذاء، والشكل الخارجي للقصبات كان إما مربعاً أو مستطيلاً بأبراجه وزواياه الأربع، وهي بدورها ترتبط بالسور الخارجي الذي قد يتكون من طابقين أو ثلاثة (حوتية عفيفة، 2015/2014، صفحة 21)، لأنه كلما كان مرتفعاً وعالٍ كلما كان أكثر حماية ودفاعاً، وما يُلاحظ فيه وجود بعض الثغرات أو الكوّات التي كانت تتخلله (مثل قصر المنصور في دلدول)، مما يعني أنها كانت مصممة لفوهات البنادق أو أسهم الرماة.

ومع كل هذه المخططات الهندسية الدفاعية لقصور توات، فقد استنتجنا في محصلة ملاحظتنا، أن تلك المجتمعات القصورية تميزت بأربع مستويات من التنظيم السياسي والدفاعي المتدرج: مستوى القصبة، ومستوى القصر، ومستوى اتحاد القصور، ومستوى الصف، وكلها مستويات دفاعية تغطي على بعضها البعض؛ وكمثال على ذلك نجد قصبة أولاد بوغنجور وقصبة با عبد الله في قصر أولاد أوشن، وقصر أولاد أوشن مع القصور المجاورة مثل أولاد أونقال وأولاد أحمد وأوقديم وأولاد ابراهيم وبني تامرت تشكل مقاطعة واتحاد في جهة تيمي، وهذه المجموعة القصورية ذات الانتماء لصف يحمد تلتقي في الدفاع بالتحالف مع قصور أخرى في نفس الصف من جهة تيديكلت وقورارة (Selka) (Abderrahman, 1922, pp. 529-545)، ذلك لأن المنطقة كانت منقسمة سياسياً إلى صفين رئيسيين: حلف يحمد وحلف سفيان (تعليق رقم 04).

#### 4. نماذج من المهام الدفاعية لقصور توات:

##### 1.4 قصر إينغر:

يقع قصر إينغر غرب عين صالح بنحو 65 كلم، وهي حالياً دائرة وبلدية تابعة لولاية عين صالح، وهذه الكلمة بربرية تعني "الشعبة أو المكان المنخفض" (بلعالم محمد باي، 2005، صفحة 14)، وقد تُكتب وتُقرأ أيضاً "إن غار"، وتتواجد في هذا القصر عدة قصبات لقبائل وفئات من المجتمع التواتي مثل قصبة أولاد حادقة وقصبة أولاد باجلول، كما تتميز هذه الجهة بمنطقة غابية رعوية متنوعة من حيث الحشائش الصحراوية، وهذه الميزة كانت من أهم أسباب تطلع الغزو الفرنسي للزحف نحو القصر، بحكم أن فرق المهارست الفرنسية كانت بأمس الحاجة لتلك المراعي والبور الرطب.

وهذا القصر تعرض لمحنة كبيرة في إطار مقاومة الغزو الفرنسي، فقد حاول الفرنسيون اقتحامه في المرة الأولى ما بين 24 و26 يناير 1900 وفشلوا في ذلك، حيث يقول (فوانو) أنهم في البداية تمّ خداعهم حيث سمح لهم سكان القصر بدخوله، ثم اصطدموا بإغلاق القصبات في وجوههم ورغم كثافة النيران والهجوم، فإن المقاومة نجحت في صد الفرنسيين (Louis Voinot, 1909, p. 93). ويقول (مارتن أ.ج.ب) أن الطابور الفرنسي استمر في إطلاق النار طيلة يومين متتاليين من 24-26 يناير 1900، لكنهم عجزوا عن اقتحام القصبات في نهاية المطاف، والسبب حسب رأيه عدم توفر سلاح المدفعية آنذاك (A.G.P. Martin, 1923, pp. 326,327). مما يعني أن دفاعات القصبات كانت قوية ومتينة.

وقبل معركة إينغر الثانية بأيام، وبالضبط بتاريخ 26 فبراير 1900 بدأ السكان يخزنون المؤونة من حبوب وتمور وينظمون أمورهم في القصبات (Louis Voinot, 1909, p. 94)، التي كان هذا دورها في مثل هكذا حالات، وفي يوم 18 مارس 1900 تمركز رجال المقاومة على الكثبان الرملية، ثم في ليلة 19 مارس هاجموا الطابور الفرنسي وبدأت المعركة، فلما قام الفرنسيون بالالتفاف خلف الكثبان الرملية تراجعت المقاومة ولجأت إلى القصبات، وحينها بدأت المدفعية قصفها، والغريب أنه كلما دُمرت تحصينات القصبات

كلما كان السكان يُصلحون تلك الثغرات (Louis Voinot, 1909, pp. 94,95)؛ مما يعني أن تقنية البناء ووسائله كانت جاهزة ومتاحة بين الناس.

وقد استمر القتال 24 ساعة وظفت فيها القوات الفرنسية متفجراتها ومدفيعتها وقاوم السكان حينها قسبةً قسبةً، وبيتاً بيتاً، وسطحاً سطحاً؛ كما ذكر الجنرال (D'eu) الذي كان مشاركاً في عملية اقتحام إينغر، وأضاف أن أعداد الضحايا كانت كبيرة جداً، والقتال كان شرساً للغاية، وأن القصر لم يسقط إلا بعدما تم إطلاق 136 قذيفة مدفع، و12000 خرطوشة رصاص؛ وأن عدد القتلى الهائل اضطرهم لدفعهم بشكل جماعي في الخنادق، وبالرغم من أن نهاية المعركة انتهت في آخر المطاف لصالح الفرنسيين إلا أن الجنرال (بومقارتن) أعطى الأوامر بنسف ما تبقى من حصون وأسوار القصر (Colonel D'eu, 1903, pp. 41-52). (ينظر للصورة رقم 01)

#### 2.4 قصر فاتيس:

قصر فاتيس أحد القصور الجنوبية لبلدية تينركوك، تبعد عن مقر البلدية زاوية الدباغ بنحو 12 كلم، وهذا الاسم الزناتي مشتق من "الفايجة" وهي الممر ما بين الكثبان الرملية، ويُعرف هذا القصر محلياً ووطنياً بـزربية فاتيس وهي من أجود وأجمل الزرابي ولها زخرفة خاصة وفريدة من نوعها، حتى أن المنطقة تُقيم لها عيداً كل عام. كان هذا القصر في مقدمة القصور المقاومة للاحتلال الفرنسي، حيث ونظراً لموقعه على طريق القوافل الصحراوية من المنيعه إلى قورارة، وبعد سقوط قصور عين صالح وأولف في جهة تيديكلت، توجهت أنظار الجيش الفرنسي نحو قورارة انطلاقاً من مراكزها العسكرية في المنيعه والبيض جيريغيل.

فلما اندفعت طوابير الغزو الفرنسي نحو جهة قورارة عبر مسار المنيعه-العرق الغربي الكبير، وكان قصر تعنطاس أول قصور تينركوك سقوطاً في 11 ماي 1900، أرسل الفرنسيون بعده إلى رجال المقاومة في قصر فاتيس يطالبونهم بالخضوع، فرفضوا واستعدوا للمقاومة والمواجهة داخل قصباتهم، الأمر الذي جعل الطابور الفرنسي يستدعي

قوات إضافية من البيض جيريغيل بلغت 400 جندي، ليبلغ في نهاية المطاف تعداد الغزاة أكثر من 1200 جندي، ومع ذلك لم يستسلم أهل المنطقة المتحصنين في قصر فاتيس بزعامة القايد عبد الكريم (A.G.P Martin, 1923, p. 164).

فجدد الفرنسيون للناس الإنذار تلو الآخر، ثم لجأوا كعادتهم إلى الاستعانة بمدفعين، من خلالهما تم قصف القصر الصغير بـ 21 طلقة مدفع، مما اضطر المقاومة نقل المعركة إلى البساتين التي نجحت فيها فرق المشاة الفرنسية بالتسرب إليها تحت ضربات المدفعية، إلى أن سقط القصر وتم أسر قائد المحارزة ومعه 15 رجلاً من كبار المنطقة (Tillion André, 1903, pp. 48,49) ورغم أن هذا القصر والواحات المحيطة به كانوا أصغر وأقل من أن يكافئوا الفرنسيين في قوتهم، إلا أنه ما يمكن استنتاجه كالعادة أن استراتيجية المقاومة استندت على الأدوار الدفاعية للقصبات والقصر والبساتين، وبفضلها استمات الناس في الدفاع رغم ما تعرضوا له من سلاح المدفعية، ثم وفي نهاية المطاف كان للبساتين حقها من المعركة كما لو كانت غابة في جبل.

### 3.4 قصر المطارفة:

المطارفة ذلك القصر الذي تتسعى به حالياً بلدية كاملة ينتمي إليها ستة قصور أخرى وهي (المطارفة، الساهلة، أولاد راشد، أولاد علي، أولاد محمود، أوفران)، وهي الآن البلدية الفاصلة بين آخر قصور توات الوسطى شمالاً وبداية قورارة جنوباً، كما أنها قريبة من قصور الغنانمة ووادي الساوره غرباً، وتبعد عن تيميمون بنحو 90 كلم جنوباً وعن أدرار حوالي 80 كلم شمالاً، ورغم أننا لم نعثر على أصل التسمية محلياً، إلا أن هناك بلدات أخرى بنفس اللفظة في ولاية المسيلة بالجزائر وبمنطقة الحجاز في الخليج العربي، يرى البعض أن أصل التسمية قبيلة من قبائل بنو هلال العربية.

في هذه المعركة العنيفة التي دامت أسبوعاً كاملاً من القتال مع الطواير الفرنسية الغازية، من 29 أوت إلى 5 سبتمبر 1900، كانت فيها المقاومة تتقدم من العرق الرملي المقابل بين المقبرة والبطحاء والقصر، وكلما تقدم الفرنسيون كان رجال المقاومة

يتراجعون إلى القسبة فيتحصنون بها ويستमित فيها القناصة المتمركزين في أبراج "المعتوقية" بالدفاع، لكن بعدما يتم استنزاف العدو عبر الكثبان الرملية والبطحاء التي تكشفهم (بلعالم محمد باي، 2005، صفحة 18، 19).

تلك الفكرة كان سكان القصر قد استخلصوا فيها النتائج من معركة إينغر، فوظفوا قدراتهم وخططهم للمقاومة على أساس ثلاثية (الكثبان الرملية، القصر، الواحة). فقد تحصن المجاهدون في هذه المعركة بكثبان قصر المطارفة، واستفادوا من أخبار وأخطاء معركة إينغر، فقاموا بإخلاء سكان القصر إلى الخارج غرباً، حيث أخرجوا النساء والأطفال والعجزة إلى البساتين التي كان كل شيء فيها متوفراً، وذلك لتعطيل خطورة المدفعية من جهة، وتقليل الخسائر البشرية التي غالباً ما كانت تؤثر على صمود المقاومة من جهة أخرى (تواتي دحمان وآخرون، 2008، صفحة 20). (ينظر للصورة رقم 02)

وبعدما استعصى سقوط القصر قرر الفرنسيون التفاوض والتسوية، ولدفع أهل المطارفة لتلك التسوية والصلح فقد أشاعوا بمبعوثهم، أنهم سيجلبون جيشاً كبير العدد والعتاد لتحطيم القسبة والاستيلاء عليها، وأنهم سيخربون البساتين وأشجار النخيل، وأن فرنسا تريد السلام وتطلب الجلوس إلى طاولة المفاوضات، وتوقيع معاهدة صلح حقناً للدماء (بابا عبد الله، 2019/2018، صفحة 41، 42). وبالفعل اتصلوا بأهل الحل والعقد وعلى رأسهم سيدي عبد الكبير بن سيدي محمد بن أحمد، واتفقوا على معاهدة متضمنة عدة شروط وهي (الاتفاق على عدم المساس بالدين الإسلامي، وألا يدفع ناس القصر الضرائب، وعدم التعامل مع الفرنسيين) (بلعالم محمد باي، 2005، صفحة 28).

#### 4.4 قصر شروين:

شروين بلدية ودائرة كانت معروفة باسم "شروين" حسب كتابات تاريخية وُجدت منذ القرن 16م وظهرت بهذه التسمية الحالية في العهد الاستعماري (بوزناشة توفيق، 2013، صفحة 82)، تبعد عن مدينة تيميمون عبر مسافة مباشرة بحوالي 60 كلم غرباً، ولها حدوداً مباشرة مع قصور الغنانمة ووادي الساوره حيث منطقة بني عباس وبشار، وقصورها حالياً

هي: شروين، أجدير الشرقي، أجدير الغربي، قصر تبو، أسفاو، بني يسلم، تاقلزي، تينكرام، قصر بكو، تاويرت، أوماح، تين زيري؛ وتنتمي إليها كدائرة كلٌّ من بلديتي طلّمين وأولاد عيسى. هذا القصر أيضاً كان له دور كبير في مقاومة الغزو الفرنسي، فقد شهد معركتين حاسمتين من 28 فيفري إلى 5 مارس 1901؛ وقد استعصى سقوطه على الفرنسيين الذين اضطروا لإمطاره بقذاف المدفعية ذات الحجم الممدود؛ بل وفي يوم 01 مارس شاهد الفرنسيون انضمام كثير من الناس من طلّمين عبر الكثبان الرملية إلى المقاومة، وأن بطاريات المدفعية نفذت من كثافة القصف ولم تؤدي إلى أي نتيجة ملموسة (Tillion André, 1903, pp. 130,131). وحتى لما مالت الكفة للفرنسيين بعدما استعانوا بذخيرة جديدة للمدفعية، اشترط الجنرال (سيرفيار) على السكان مقابل الأمان شروطاً تعجيزية حقدّاء عليهم لما تلقاه من مقاومة، حيث طالب بتسليم 5 وجهاء كرهائن، ونزع السلاح وتفكيك تحصينات القصبّة، ودفع تعويضات مالية ثقيلة (A.G.P Martin, 1923, p. 180).

ويشهد بقوة ومتانة تلك البناءات القصورية الفرنسيين في كتاباتهم، حيث يقول أحد ضباط سلاح المدفعية أن تلك القذائف المدفعية التي تم قصفها على إينغر وشروين غالباً ما كانت نتائجها سيئة، ويرجع ذلك للمقاومة الكبيرة لتلك الهياكل العمرانية التي كانت تتميز بجدران سمكة للغاية وتجانس مثالي للبيوت؛ وأنهم أحياناً كانوا يلجئون لضرب المسجد واختراقه لأنه غالباً ما كان جزءاً من القصبّة، فإذا تم فتح ثغرة فيه يتم النفاذ منها، وأن تلك الجدران الطينية كان سُمكها ما بين 35 و40 بوصة، وأن تدمير أسوار القصبّات بقذائف عادية كان أمراً مستحيلاً، ولذلك كان من الضروري عليهم استخدام قذائف ممدودة أكثر تطوراً وقوة، والتي استدعت منهم 35 قذيفة في شروين وطلّمين معاً (Revue D'Artillerie, 1902, pp. 318-320). ثم حتى بعد نهاية المعارك أمطر الفرنسيين جام غضبهم على تلك القصبّات التي اشترطوا تفكيكها وتدمير أسوارها وأخذ رهائن مقابل الخضوع والأمان للنساء والأطفال والعجزة الذين كانوا في القصر.

## 5. خاتمة:

وبالتالي ومما يمكن استنتاجه من خلال هذه المقالة التاريخية: أن قصور توات على بساطة عمرانها وبيئتها، كانت لها عمارة خاصة تتميز بها عن غيرها من الحواضر الصحراوية، ذلك التميز عرفناه في مواد البناء وطريقة وهندسة البناء والنمط العمراني، ناهيك عن عوامل وأسس اختيار ذلك النمط وعلاقته بالبيئة والمجتمع والظروف والأوضاع، ضف على ذلك جمالية تلك العمارة وأدوارها التاريخية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وكلها كانت تشكل مجموعة خصائص وظيفها المجتمع التواتي في محاكاته للطبيعة، وفي معاداته للأخطار الخارجية التي كانت تهدده بين الفينة والأخرى.

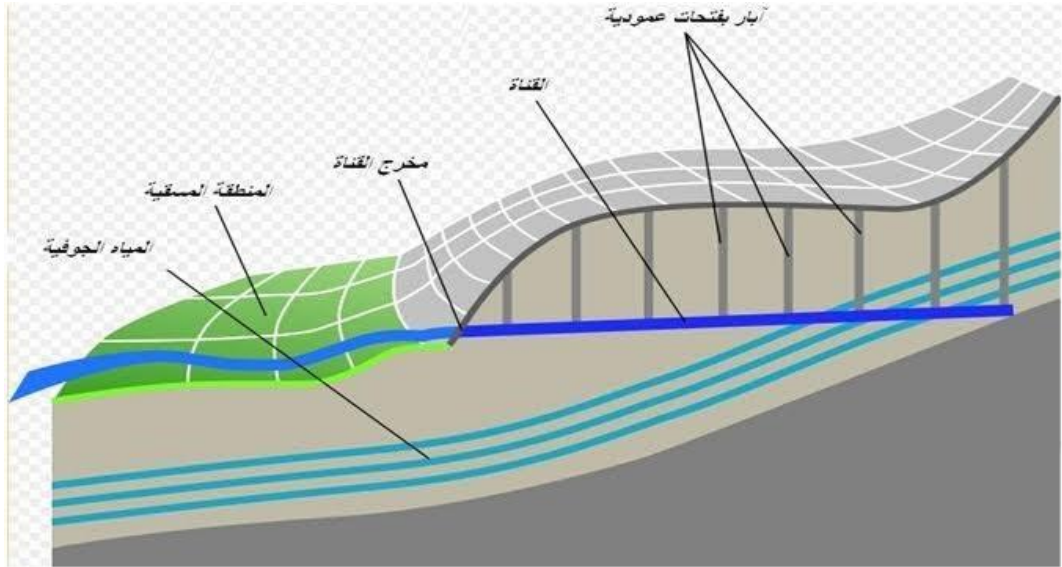
وضرربنا الأمثلة عن تلك المهام المنوطة بقصور توات، وخاصةً أنها كانت تصب في مصلحة حماية وأمن المنطقة، حتى أن الفرنسيين شهدوا وكتبوا على تلك القصور وكيف قاومت ودافعت ضد قذائفهم ومدافعهم، وكيف كان الناس فيها يعيدون بنائها رغم احتدام وطيس المعارك، وكيف أن الفرنسيين حتى بعد انتصاراتهم تعمدوا تحطيم وتدمير تلك الحصون والقصبات الطينية، وكأنهم كانوا يخشون استخدامها مرةً أخرى. وبالمختصر المفيد فإن قصورنا الطينية مدعاة للفخر والبحث، وعلى هذا الأساس تحتاج منا لإعادة الاعتبار لها والاهتمام بها ترميماً ودراسةً وإعادةً للبناء على منوالها، وهكذا نحافظ عليها كتراث وكعمران وكعمارة صديقة للبيئة، وإني بالمناسبة أرجو وأتمنى إتاحة الفرصة للباحثين والدارسين لتسليط الضوء على قصورنا الطينية، من خلال الملتقيات والمقالات العلمية في مجلاتنا الأكاديمية، على غرار مجلة الساور للدراسات الإنسانية والاجتماعية التي ما فتأت تشجع وتدعم هذا المنحى، وهي مشكورة على ذلك.

## 6. التعليقات:

(01): الفقارة: والقاف هنا تُقرأ G، وهي تقنية ري صحراوية يعتقد أنها انتقلت من بلاد فارس خلال القرن 11م؛ تقوم على نفاذ الآبار في بعضها البعض، بتدفق الماء من هذا إلى هذا، فبئر الفقارة الأول يدفع الماء للبئر الموالي وهكذا إلى آخر بئر حتى يخرج على وجه الأرض، ثم

يُنقل عبر ساقية ممتدة إلى القصر، ثم يوزع عبر ما يعرف بالقسرية إلى البساتين حيث تنقله سواقي فرعية إلى أحواض تسمى الماجن.

شكل 02: مخطط توضيحي للفقارة في منطقة توات.



المرجع: (لحسن حرمة ويوسف بوتدارة، 2016)

(02): هضبة تادمايت: هضبة صخرية تتكون من تضاريس كريتاسية فسيحة مع منحدرات وأودية، تمتد بين دائرتي عرض 27° و 30° شمالاً، وترتفع حوالي 600 متر، ويغطيها من الشمال إلى الجنوب لون أحمر قديم، وهي منطقة خالية من السكان باستثناء نهايات حوافها التي تشكلت على جنباتها واحات تيديكلت وتوات وقورارة (مياشي ابراهيم، 1996، صفحة 20).

(03): لجوء قيادات المقاومة الشعبية: حيث لجأ الشريف محمد بن عبد الله التلمساني وبالضبط إلى جهة تيديكلت ما بين 1858 إلى 1861، وأما بوشوشة فقد اتخذ من عين صالح عاصمةً لتحركاته وثورته بين 1863-1874، وكان أولاد سيدي الشيخ في انتفاضاتهم يترددون على قورارة خاصةً مرحلة سي قدور بن حمزة من 1869 إلى 1883، ومرحلة الشيخ بوعمامة الذي عاش في لدول من سنة 1883 إلى 1894.

(04): حلف يحمد وحلف سفيان: اختلفت التفسيرات لهذا الانقسام الصفي الذي عرفته قصور توات خاصةً خلال القرن 19م، وما يمكننا القول عنه أنها فتنة وقعت بين قبائل توات، فكان بعضهم يميل للفرقة المسماة بيحمد وبعضهم الآخر يميل إلى فرقة سفيان، وسبب التسمية رسالة مخزنية جاء فيه "إن أهل الصحراء اشتدت الحرب بينهم مثل الحرب الواقعة بين أحمد صلى الله عليه وسلم، وبين أبي سفيان رضي الله عنه" (بكري عبد الحميد، 2007، صفحة 45).

## 7. الملاحق:

الصورة 01: صورة لأسرى من معركة إينغر 19 مارس 1900 بجوار سور قصر إينغر.

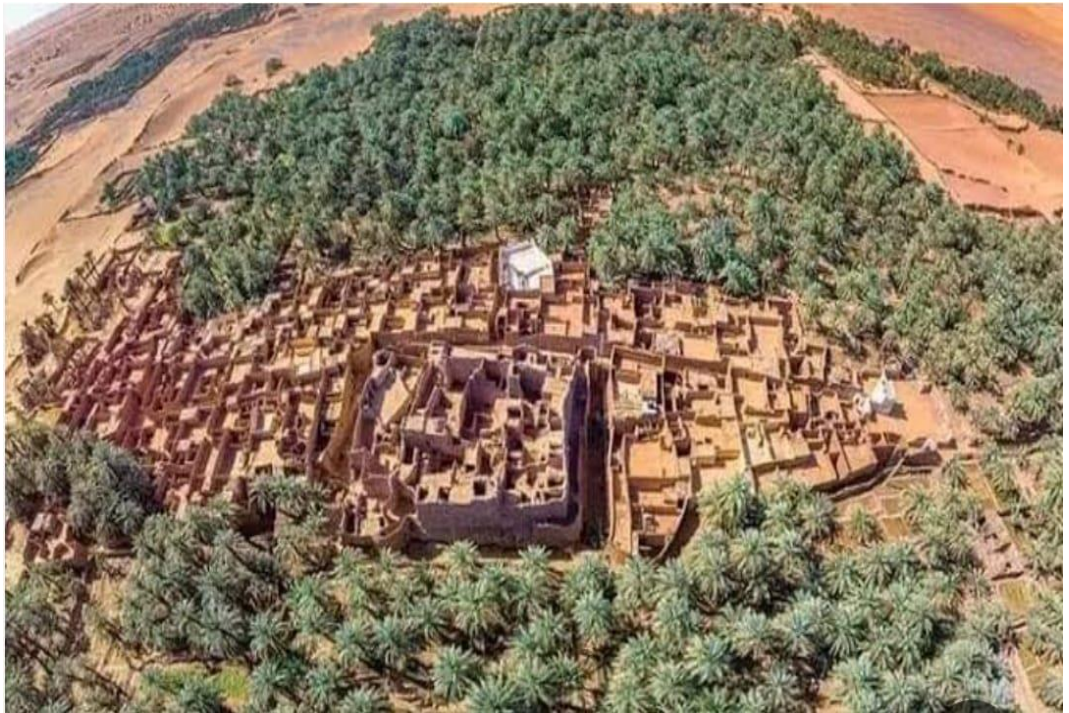


المصدر: Cote: FR ANOM 8Fi451/115

الصورة 02: بقايا قصبة قصر المطارفة وآثار ما تعرض له دفاعياً.



الصورة 03: نموذج عن موقع قصر تالة بتيميمون ومحاكاته للبيئة الصحراوية.



الصورة 04: صورة لنموذج ضريح ولي صالح في قصر أقبور دلدول.



مصدر الصور: من التقاط وجمع ومعاينة للباحث في منطقة قورارة/ ولاية تيميمون.

## 8. المصادر والمراجع:

1. البكري محمد بن عبد الكريم . (2024). درة الأقطام في ذكر أخبار المغرب بعد الإسلام. أدرار- الجزائر: خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي كوسام.
2. الفاطمي محمد. (2022). البيوتات العلمية بقورارة إبان القرنين 11 و12 هـ. الجزائر: دار صبحي للطباعة والنشر.
3. أوجين دوماس. (2024). الصحراء الجزائرية دراسة جغرافية إحصائية وتاريخية 1843-1851. (بن حرز الله بن مويضة، المترجمون) الجزائر: دار النعمان.
4. بابا عبد الله. (2019/2018). الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962 م من خلال سجلات المحكمة الشرعية. (أطروحة دكتوراه، المحرر) أدرار: جامعة أحمد دراية.
5. بكري عبد الحميد. (2007). النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.
6. بلعالم محمد باي. (2005). الرحلة العلية إلى منطقة توات (الإصدار ج2). الجزائر: دار هومه.
7. بوزناشة توفيق. (2013). دليل الجمهورية (الإصدار ج1). الجزائر: مطبعة ناكسوس تي في.
8. تواتي دحمان وآخرون. (2008). دور أقاليم توات خلال الثورة الجزائرية. الجزائر: دار الشروق.
9. حاج أحمد الصديق. (2011). التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 هـ إلى القرن 14 هـ (المجلد الطبعة 2). الجزائر: منشورات دار الحبر.

10. حوتية عفيفة. (2015/2014). حاضرة تينجورارين دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية خلال القرن 13 هـ/19 م. (رسالة ماجستير، المحرر) أدرار: جامعة أحمد دراية.
11. حوتية محمد. (2007). توات والأزواد (الإصدار الأول). الجزائر: دار الكتاب العرب.
12. فرج محمود فرج. (1977). إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
13. لحسن حرمة ويوسف بوتدارة، الفقارة أسلوب سقي ونظام حياة اجتماعية، صفحة الإذاعة الجزائرية، منشورة في: 2016/05/16، التصفح: 2023/12/21، التوقيت: 19:55، <https://radioalgerie.dz/news/ar/reportage>
14. محمد عبد الكريم، الشبكة العمرانية لإقليم توات بولاية أدرار، جامعة وهران2، مذكرة ماجستير في الجغرافيا والتهيئة العمرانية، إشراف: عثمان طيب، موسم 2016/2015
15. مياي ابراهيم. (1996). توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912 م. الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.
16. مياي ابراهيم. (2012). الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934. الجزائر: دار هومه.
17. أرشيف ما وراء البحار، Cote: FR ANOM 8Fi451/115

18. Louis Voinot. (1909). Le Tidikelt, Etude sur La Géograpuie L'Histoire Les Mœurs Du Pays. Oran: Editions Jacques Gandini.
19. A.G.P Martin. (1923). Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1904, au Maroc de 1894 à 1912 . paris: lebrarie Félix Alcan.
20. Colonel D'eu. (1903). In-Salah ET Le Tidikelt. Paris : Librairie Militaire R. Chapelot et C<sup>e</sup>.
21. Lacroix et De lamartinière. (1897). Documents pour servir a l'étude du Nord Ouest African (éd. T.4, Vol. T.4). alger: Éditeur: service des affaires indigènes.
22. Revue D'Artillerie. (1902). Année 30, Tome 60 (Avril-Septembre 1902). Paris: Éditeur: Berger-Levrault et Cie.
23. Selka Abderrahman. (1922). Notice Sur Touat (éd. Volume 23, N° 87-92, Vol. Volume 23, N° 87-92). Alger: Bulletin De La Société De Géographie D'Alger Et De L'Afrique Du Nord.
24. Tillion André. (1903). La Conquête des Oasis Sahariennes: Opérations au Tidikelt, au Gourara, au Touat, dans La Zousfana et dans La Saoura en 1900 et 1901. Paris : Publisher: H. Charles-Lavauzelle.